واقع الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر

د. محمد الهادي حارش
جـامـعـة الجـزائـر 2

ملخـــص:

المداخلة هي بمثابة محضر معاينة لواقع الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر بعد ما يقارب نصف قرن من الاستقلال، وإذا قارننا بين ما نشرناه خلال هذه الفترة، بما نشره الفرنسيون خلال فترة تواجدهم في الجزائر (132سنة)، نجد أنه لا مجال للمقارنة لا من حيث "الكم" ولا من حيث "النوع"، فأين نحن من الأعمال الأكاديمية الموسوعية التي عهدناها في القرن الماضي.

هذا بغض النظر عن أفكار هؤلاء، لأنه مهما كان الأمر، فهم بدورهم كانوا يخدمون قضايا أمتهم، فلا يجب أن تبقى جهودنا وأقلامنا مسلطة على أعمال هذه المدرسة فقط، دون أن نتقدم، ونقدم البديل، فلا يجب أن نجعل هذه الكتابات هدفا لنا، بل يجب أن تكون حافزا ودافعا لنا للمزيد من التحري والبحث، لأنه بغير ذلك، لا نقدم شيئا لتاريخنا، ولا نزعزع أعمال هؤلاء التي ستبقى كالطود شامخة ما دام الضعف فينا.

عاد الحديث مؤخرا وبشكل واسع حول واقع الدراسات التاريخية في الجزائر، لكن يبدو لي، أنه من السابق لأوانه الحديث عن واقع هذه الدراسات، إن لم نضع أرضية لما تحقق من دراسات وما نريد تحقيقه حتى يكون ذلك مجالا للمقارنة من ناحية، ووضع مجال زمني للدراسة من ناحية أخرى، ففي مجال الزمان، لا أستطيع شخصيا، إصدار أي حكم على واقع الدراسات التاريخية في مختلف مراحل تاريخنا وفي مختلف التخصصات، وان كنت أرى أن ما كتبناه ونشرناه حتى الآن

في مختلف مراحل تاريخنا، يعد " قطرة " في بحر، سواء من حيث " الكم " أو من حيث " النوعية " فالدراسات المنشورة حتى الآن، مازالت في رأينا هزيلة ماعدا بعض الدراسات المحدودة لبعض أساتذتنا في تخصصات مختلفة، لكنها محدودة جدا، مما يجعل في رأينا دائما معظم الدراسات، لا ترقى الى مستوى الدراسات الأكاديمية الموسوعية التي عهدناها في القرن الماضي، وقد ساهم عاملان في ذلك: الباحثون ودور النشر، لا الباحثون بالإمكانات المادية والمالية التي يتوفرون عليها حاليا، قادرون على تخصيص الوقت الذي تتطلبه تلك الأعمال الأكاديمية الموسوعية، التي تحتاج إلي بحث مضني ومثابرة، وحتى تنقل الى مصادر الخبر ومكان الحدث، وهو ما يتعذر بلوغه بالنسبة لأغلب باحثينا.

هذا بالنسبة للباحث، أما بالنسبة لدور النشر، فهي بدورها لا تتوفر على الإمكانيات التي تسمح لها بنشر وتوزيع مثل هذه الأعمال الموسوعية، التي تكلفها أموالا طائلة، يصعب عليها في أحيان كثيرة استرجاعها في الوقت المرغوب فيه، نظرا لتكلفة مثل تلك الأعمال "في حجمها "ومحدودية القراءة وغياب سياسة وطنية للكتاب، مما يجعل معظم الدور، توجه جهودها نحو الكتاب المدرسي والتجاري.

هذا استطراد، قادني بعيدا عما أريد قوله، إذ ما أريده، هو تركيز حديثي في إطار اهتماماتي "التاريخ القديم" وأترك باقي الحقب للزملاء المختصين. وحتى أكون أقرب إلى الحقيقة، لا يمكنني أن أصدر حكما هكذا على واقع الدراسات التاريخية في الجزائر المستقلة دون التطرق إلى ما نشره مؤرخو المدرسة الفرنسية، حول تاريخنا القديم، حتى يكون هناك مجال للمقارنة، هذا بغض النظر عن أفكار هذه المدرسة، لأنه مهما كان الأمر، فهم بدورهم كانوا يخدمون قضاياهم وقضايا أمتهم، فلا يجب أن تبقى جهودنا وأقلامنا مسلطة على أعمال هذه المدرسة فقط، دون أن نتقدم، ونقدم البديل، فأين نحن من الأعمال الموسوعية لستيفان قزال (1912–1928) (S. Gsell) وكورتوا (1955) (C. Courtois)، وديهل (1896) (Diehl)، كومبس (1960–1961) (G. Camps)، وغيرهم كثيرين، ممن كتبوا في

تاريخنا القديم، فضلا عن الذين كتبوا في تاريخنا الإسلامي، ودسوا فيه ما شاءوا من أفكار، وكذا في تاريخنا الحديث والمعاصر، فلا يجب أن نجعل هذه الكتابات هدفا لنا، بل يجب أن تكون حافزا ودافعا لنا للمزيد من التحري والبحث عن الحقيقة، لأنه بغير ذلك لا نقدم شيئا لتاريخنا، ولا نزعزع أعمال هؤلاء، التي ستبقى كالطود شامخة ما دام الضعف فينا.

إذن حتى نكون موضوعين مع أنفسنا، لنقارن ماذا قدمنا من إنتاج علمي، بعد حوالي خمسة عقود من الاستقلال (1962–2010)، أي أزيد من ثلث الفترة التي قضاها الاستعمار في بلادنا (1830– 1962)، وماذا قدم هؤلاء لأمتهم خلال وجودهم في الجزائر، لندرك أنه لا مجال للمقارنة، لا "كما" ولا "كيفا"، فمن حيث "الكم" نجد عشرات الدوريات، كانت تصدر بانتظام، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل، استقلال الجزائر، بينما عجزنا، ونعجز حتى الآن عن إصدار دورية واحدة، تصدر وتستمر في الصدور لعقد من الزمن كأقصى تقدير.

لنلقي الضوء على بعض تلك الدوريات التي كانت تصدر بانتظام منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى السنوات الأولى للإستقلال الوطني، معظمها دون انقطاع حتى أثناء الحربين العالميتين وأيام شدة ثورة التحرير.

ضمن تلك الدوريات نذكر المجلة الإفريقية (La Revue Africaine 1856-1962) التي أصدرتها الجمعية التاريخية الجزائرية التي كان رئيسها الشرفي الماريشال "راندون" الحاكم العام للجزائر.

وكان من أهدافها بناء على قانونها الأساسي هو الاهتمام بتاريخ "شمال إفريقيا" عموما وتاريخ الجزائر بوجه خاص، في مختلف مراحله، من أقدم العصور، وقد استمرت في الصدور منذ 1856 حتى مارس 1962، ومن يطلع على المجلة يدرك أن إهتمامها شمل إلى جانب التاريخ في مختلف مراحله، العلوم المساعدة لفهم التاريخ، كالنقوش والمسكوكات والأركيولوجيا وعلم الجغرافيا واللسانيات وعلم

الاجتماع وعلم السلالات والاثنوغرافيا ومن هنا كانت المجلة شاملة لمختلف العلوم الإنسانية.

وهذا دون إهمال المسائل المتعلقة بالأرض ومنتوجاتها وطبعا التعمير، وقد اتخذت من الفترة الرومانية "نموذجا" حتى تقتدي به فرنسا.

إلى جانب المجلة الإفريقية، نذكر نشريات (Bulletins) المقاطعات الثلاث: الجزائر، وهران، قسنطينة:

- Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine (1856-1962).
- Bulletin de la société de géographie de la province d'Oran (puis de géographie et d'archéologie).
- Bulletin de la société de géographie d'Alger (puis de l'Afrique du nord).

كانت هذه الجمعيات قد وضعت نصب أعينها توزيع أعباء البحث في هذه الرقعة الواسعة من بلاد المغرب التي تشكلها الجزائر، وكانت منذ البداية على دراية بثقل المهمة الملقاة على عاتقها، مما كان وراء تقسيم المجال، شرق، غرب، وسط، بعد ما كانت فكرة التوأمة أو تأسيس جمعية واحدة قائمة وفكرة أساسية عند مؤسسي الجمعيات الثلاث.

وما هذا التقسيم إلا منهج عمل، أي توزيع المهام، فهذه الجمعيات لم تكن تتنافس، لكن بالعكس كانت تتكامل.

أما عن أهداف هذه الجمعيات، فيمكن استخلاصها من نظامها الأساسي وهي دراسة ونشر كل المسائل ذات الصلة بالجغرافيا والعلوم المتصلة بها، تأخذ على عاتقها دعم وتشجيع البحوث والأشغال التي يكون هدفها فائدة فرنسا، تشجع وتحث على الأشغال والدراسات التي تعرف بالموارد والثروات الجزائرية، تتكفل بكل المعارف الخاصة بالاستيطان والهجرة، تشجع الرحلات (السفريات) التي

يمكنها أن تفتح أفاقا جديدة للتجارة والصناعة، وتنشر أخيرا المعلومات الخاصة بالجغرافيا التجارية، الصناعية والبحرية.

جمعية الجغرافيا لمقاطعة وهران، أصبحت بعد أربع سنوات من تأسيسها (1878-1882م)، جمعية الجغرافية والآثار لمقاطعة وهران، هذا المد من الجغرافية إلى الجغرافية والآثار، كان محتوما، لا مفر منه، لأنه مجرد أن تبدأ الدراسة الجغرافية، السبر الأثري يفرض نفسه، لأنه لا يجب أن يغيب عن الذهن أن إفريقيا الشمالية (بلاد المغرب)، هي عبارة عن حقل واسع للبحث الأثري، خاصة في هذه الفترة من المد الاستعماري، حيث تبدو كل إشارة أو علامة ذات أهمية كبرى لفهم والإحاطة بهذا القطر.

البحث الجغرافي، كشف في هذه المنطقة بوضوح وجلاء "الكم" وخاصة "القيمة" الأثرية للبقايا المتناثرة على سطح الأرض فضلا عن بعض المعالم التي كانت محل زيارات وجدولة قبل تأسيس هذه الجمعيات، لكن للأسف لا أحد إنشغل بجد لحفظ تلك الآثار من عواقب الدهر، وهو ما أخذته تلك الجمعيات على عاتقها.

تم القيام بالعديد من الأعمال في المنطقة، وهي الأعمال التي كرست لها هذه الجمعيات، العديد من الباحثين الرواد الذين درسوا بتأني كل أجزاء الجزائر وبل بلاد المغرب من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، فقاموا ب "فحص" دقيق صارم لكل المواقع الأثرية القابلة لتقديم المزيد من المعلومات والأخبار، فأجريت العديد من الحفريات في محاولة لانتزاع الأرض أسرارها، دون إدخار للوقت ولا الجهد.

الاحتلال الفرنسي للجزائر في هذه الفترة كان يكتسي طابعا عسكريا، فكان المحور ذي الأولوية هو إعادة بناء كامل شبكة الطرق الإستراتيجية والطرق الرئيسية للفترة القديمة وبالخصوص الفترة "الرومانية".

لم يكن عمل هذه الجمعيات مقتصرا على البحث ونشر العديد من الوثائق، بل تجاوز ذلك في مرحلة أولى إلى إنشاء المتاحف لحفظ وإنقاذ اللقي من الضياع، فتم إنشاء متحف وهران ثم متحف الجزائر وقسنطينة، وفي مرحلة ثانية إنشاء مكتبات كملاحق لتلك المتاحف.

إذا كنا نلاحظ صدور تلك النشريات بانتظام، فإننا نلاحظ أيضا أنها كانت في خدمة الحركة الاستعمارية، وأن كثيرا من أعمال السبر (Investigations)، أستفادت منها القوات الاستعمارية، بل في معظم الحالات هي التي باشرت البحث وتمويل الأشغال، وهو ما يفسر مساهمة العديد من الضباط في نشاط تلك الجمعيات التي كانت في خدمة المد الاستعماري في تلك الفترة.

لم تكن الدوريات المذكورة فقط التي أهتمت بتاريخ وآثار الجزائر، بل نجد العشرات الأخريات بعضها خاص ببعض المدن الهامة وضواحيها مثل:

- نشرية أكاديمية هيبون (Bulletin d'Académie d'Hippon)،
- الحولية الجزائرية للجغرافيا (Annales Algérienne de géographie)،
- آثار إفريقيا العتيقة (Archéologie de l'Afrique Antique)،
- نشريات المراسلات الإفريقية (Bulletin de correspondance Africaine 1882)،
- حولية التاريخ الاجتماعي (Annale d'histoire sociale)،
- ومجلات أخرى متخصصة في مختلف ميادين المعرفة مثل:
- مجلة الآثار (Revue Archéologique (1844)،
- المجلة التاريخية (Revue Historique 1876)،
- مجلة النقوش (Revue Epigraphique)،
- المجلة الاثنوغرافية (Revue d'ethnographie1882)،

– مجلة الانتروبولوجيا (Revue d'anthropologie 1872-1956)،

– مجلة المسكوكات (Revue de la numismatique)،

وغيرهـــــا:

- BACTH. (Bulletin Archéologique du comité des travaux historique) (1883-1964).
- Journal Asiatique.
- Cahier d'histoire Mondial.
- Cahiers d'études Africaines.
- Archéologie de l'Afrique antique.
- Journal des Savants.
- Journal de société des Africanistes.
- Mélange d'Archéologie et d'histoire (1927)
- Revue des deux Monde(1874).
- Revue Archéologique(1844).
- Revue Historique (1876)

وغيرها كثير فضلا عن دوريات أخرى تصدر في تونس والمغرب وفي فرنسا وكذا مجلات كثيرة، بدأت تصدر خلال القرن العشرين، واستمرت بعضها في الصدور حتى بعد الإستقلال منها:

– ليبيكا (الآثار والنقوش) Libyca (Archéologie épigraphie)،

– ليبيكا (الانتروبولوجيا وما قبل التاريخ) Lybica (Anthropologie-préhistoire)،

– النشرية الجزائرية للآثار Bulletin d'archéologie algérienne،

ومجلات أخرى عديدة تهتم بمختلف ميادين المعرفة التاريخية والأثرية.

أما من حيث المؤلفات، فنجد المئات –إن لم نقل الآلاف– المتخصصة في تاريخنا وآثارنا القديمة فقط من حيث "الكم"، فضلا عن النوعية، فهل أنتجنا كتابا

واحدا يماثل كتاب كريستيان كورتوا (Christian Courtois) "الوندال وإفريقيا" الذي تتبع فيه هذه القبائل الجرمانية منذ خروجها من قرية "وندل" ببلاد الاسكيندينافية وهيمها في وسط أوروبا ودخولها غالة وصولا إلى سهول الأندلس "واندالوسيا" وظروف دخولها بلاد المغرب سنة 429م بعد أن استعرض أوضاع بلاد المغرب أواخر أيام الاحتلال الروماني من قساوة الضرائب والاضطهادات الدينية، مما مهد للتقارب الوندالي–المغربي، وهو التقارب الذي سمح للأهالي بالمشاركة في الحملات الوندالية على: جزر البليار، كورسيكا، صقيلية وخاصة على روما كما تناول تحت عنوان: إفريقيا المنسية الممالك وإمارات المور التي أفلتت من السيطرة الوندالية كمملكة ماسونا، ومملكة الورسنيس، ومملكة الحضنة، ويقع الكتاب في 455 صفحة من الحجم الكبير:

Courtois (Chr.) (1955), Les Vandales et l'Afrique, éd Arts et métiers graphiques, (Paris), 455p.

وهو الأمر بالنسبة لكتاب ديهل: إفريقيا البيزنطية، تاريخ السيطرة البيزنطية في إفريقيا (533–709م)، حيث أحاط في هذا الكتاب بظروف إفريقيا تحت حكم الوندال "الأريوس"، والإضطهادات التي تعرض لها "الكاثوليك" في إفريقيا التي دفعت الإمبراطور جوستنيانوس للقيام بما أسماه "بحركة الاسترداد" مفصلا الحملة البيزنطية والظروف التي مكنت نجاحها، ثم عملية التهدئة قبل تقديم تفاصيل عن الإدارة البيزنطية في شمال إفريقيا من الإدارة المدنية والعسكرية.

ونظرا للمقاومة التي واجه بها الأهالي الحركة التوسعية البيزنطية، يفصل لنا ديهل مختلف الأعمال العسكرية التي قام بها البيزنطيون، ثم مختلف التحصينات والقلاع التي بناها البيزنطيون من قلاع الحدود:

- حدود طرابلس.
- حدود المزاق.
- البروقنصلية.

- حدود نوميديا.
- حدود موريطانيا السطايفية.
- مراكز موريطانيا القيصرية.

وكذا قلاع الداخل، مزود بالأشكال والبيانات، دون أن يهمل الكنيسة الإفريقية وعلاقتها بالإدارة البيزنطية قبل أن ينهى الكتاب بأسباب التدهور ونهاية الحكم البيزنطي وهذا في 615 صفحة.

Diehl (Charles) (1896), L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine en Afrique (533-709) éd. Leroux (Paris), 615p.

أما أعمال بالوت (L. Ballout) وكومس (G. Camps) فما زالت إلى اليوم كأمهات المراجع في التخصص، لا يمكن أن يغفلها أي باحث في "ما قبل التاريخ" الشمال الإفريقي، فالأول يتناول في كتابه: ما قبل التاريخ شمال إفريقيا (محاولة كرونولوجية) إلى ميلاد الكرونولوجية، النسبية والمطلقة معتمدا على الأسس الستراتيغرافية والأسس الباليو- مناخية والباليو نطولوجية والأثرية، قبل أن يتعرض لكرونولوجية الباليوليتيك (العصر الحجري القديم) وكذا العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري الحديث، دون أن يغفل الحضارة الايبرو-مورزية والمجموعة القفصية، مختتما بحثه بالمناظر النيوليتيكية وميلاد الفن الصخري وهذا في 544 صفحة.

Balout (L.) (1955), Préhistoire de l'Afrique du nord (Essai de chronologie), éd. Arts et métiers graphiques (Paris), 544p.

أما الثاني "أي كومس" فقد تناول في كتابيه: في أصول البربر: المباني والعادات الجنائزية.

وفي أصول البربر: مسينيسا وبدايات التاريخ هذا العمل الثاني الذي يعد رسالة تكميلية للأول الذي أستعرض فيه المباني الجنائزية وتطورها من "الجثوة"

حتى الأضرحة الملكية المعروفة بالمدغاسن وقبر الرومية مرورا على "البازينة" وكذا العادات الجنائزية..وهذا في 627 صفحة مزودة برسوم وصور وخرائط.

أما الكتاب الثاني، فقد تحدث فيه عن الأفارقة قبل مسينيسا، مستعرضا النصوص ثم أصول الزراعة في إفريقيا الشمالية ونمط المعيشة والتنظيم الاجتماعي بناء على الآثار.

وفي القسم الثاني: عهد مسينيسا، فقد تحدث عن البلاد والسكان ثم ممالك القرن الثالث ق.م، قبل أن يتعرض لحكم مسينيسا وهذا في 320 ص.

Camps (G.) (1961), Aux origines de la berbèrie, monuments et rites funéraires protohistoriques, et Arts et métiers graphiques, (Paris), 627p.

Camps (G.) (1960), Aux origines de la berbèrie, Massinissa ou les débuts de l'histoire, imprimerie officielle, Alger, 320p.

ونجد كتاب مارسال بن نابو "المقاومة الإفريقية، لسياسة الرومنة" الواقع في 635 صفحة، يتعرض للسياسة الرومانية التي كانت تستهدف "رومنة" شمال إفريقيا وردود الفعل الأولى التي كانت بمثابة يقظة وتنبيه لضرورة المقاومة.

وفي مجال المقاومة يتعرض للمقاومة العسكرية في مختلف مراحلها، قبل أن يتطرق للمقاومة الثقافية، حيث تأخذ المقاومة الدينية النصيب الأوفر من إهتمام الباحث الذي لم يفوت على نفسه استعراض نقائص سياسة الرومنة بالمقارنة بأطر الحياة المحلية.

Benabou (M.) (2005), La résistance Africaine à la romanisation, éd. La découverte (Paris). 635p.

أما ستيفان قزال، الذي يمكننا إعتباره "عميد" هؤلاء الباحثين الفرنسيين، فضمن أكثر من مائتي عمل، سأكتفي بذكر بعض العناوين فقط:

Gsell(S.) (1919-1928) Histoire ancienne de l'Afrique du nord (8Vols), éd. Hachette, Paris)

T1 : (1912) Les conditions du développement historique, les temps primitifs, La colonisation phénicienne et l'empire de Carthage, Paris, 544p.

T2 : (1918) L'état Carthaginoise, Paris, 475p.

T3 : (1918) Histoire militaire de Carthage, Paris, 424p.

T4 : (1920) La civilisation Carthaginoise, (Paris), 515p.
T5 : (1920) Les Royaumes indigènes, organisation sociale, politique et économique (Paris), 297p.
T6 : (1920) Les Royaumes indigènes, vie matérielle intellectuelle et morale (Paris), 302p.
T7 : (1928) La république romaine et rois indigènes (Paris), 312.
T8 : (1928) Jules César et l'Afrique, Fin des royaumes indigènes (Paris), 306p.
Gsell (S.) (1901), Les monuments antiques de l'Algérie (Paris), (2vols), 290 et 447p.
Gsell (S.) (1902), Enquête administrative sur les travaux hydrauliques anciens en Algérie, (Paris) 143p.
Gsell (S.) (1911), Atlas Archéologique de l'Algérie éd. Leroux, (Alger-Paris), 2 vols.
T1 : textes, 510p.
T2 : Cartes 50 cartes
Gsell (S.) (1915), Hérodote textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord, (Alger-Paris), 253p.
Gsell (S.) (1922), Inscriptions latines de l'Algérie.
T1 : Inscriptions de la proconsulaire (Paris), 458p.

هذه عينات لأعمال بعض الباحثين والمهتمين بتاريخ الجزائر في عصورها القديمة، وهي عينات تمتاز بالعمق والدقة، لدرجة تجعل المرء ينبهر، وينتابه شعور بعدم جدوى طرق موضوعات طرقوها، وبذل جهد في موضوعات استهلكوها، إذ لا نكاد نجد مجالا لم يكن محل اهتمامهم، ولم يدلو فيه برأيهم، مما يجعل تلك الأعمال مراجع رئيسية لنا لا يمكن إغفالها، بل لا يمكن تجاوزها لدراسة أي موضوع في تاريخنا القديم.

ولا أتحدث عن أعمال مارسال لقلى (M. Leglay) وبيرتيه (A. Berthier) وقوتي (E. F. Gautier) ولاسيير (J. M. Lassere) وكانيا (R. Cagnat) وديسانج (J. Desanges) ومازار (J. Mazard، وشارييه (Charier) وسلامة (P. Salama) وسنتاس (Cintas) وغيرهم كثيرين، فأين نحن من كتابات هؤلاء، فالعناوين المنشورة منذ الاستقلال إلى الآن، لا تعد بعدد سنين الاستقلال، فهي أقل بكثير، فلا واحد من

باحثينا، كتب عددا من العناوين، تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، دون الحديث عن النوعية، والتحكم في مناهج ومصادر البحث.

طبعا حديثي هنا يخص فترة " التاريخ والآثار القديمة " مع استثناء – ربما – التاريخ الحديث والمعاصر، حيث نجد بعض الأقلام التي تستحق الذكر، فعدد العناوين التي كتبها الدكتور أبو القاسم سعد الله – حفظه الله – تتجاوز كل ما كتبناه نحن أساتذة التاريخ والآثار القديمة مجتمعين، إضافة إلى كتابات مولاي بلحميسي – رحمه الله – ، وكتابات المرحوم محفوظ قداش – رحمه الله – وكتابات الأستاذ جمال قنان وناصر الدين سعيدوني حفظهما الله، ومع ذلك تبقى قليلة، مقارنة بما كتب في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، في وقت، كان المفروض أن يحدث العكس.

ومع تطاولنا في أحيان كثيرة على هؤلاء المؤرخين والأثريين الذين وجهوا تاريخنا وفق أهوائهم، وما يخدم مصالحهم ومصالح أمتهم، وجعلوه مرتعا للأفكار الهدامة، ولكن مع ذلك، أقول أنه لولا أعمال هؤلاء لما أمكننا دراسة العديد من النقاط في تاريخنا القديم التي كانت ستبقى في الظل أو الظلام الحالك، ولإختفت الكثير من معالم تاريخنا، التي تتعرض الآن للخراب و الدمار و النهب في وضح النهار، دون أن نحرك ساكنا، هذا هو واقع الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر المستقلة.

وان كنت لا أنصب نفسي مدافعا عن هؤلاء الذين شوهوا فعلا الكثير من مراحل تاريخنا، ووجهوه وفق أهوائهم، وما يخدم مصالحهم وتفسيره بما يتناسب وحاضرهم في الجزائر ومازالوا. لكن يبدو لي أيضا أنه حان الوقت الذي نكف فيه عن البكاء عما فعله غيرنا فينا، ونشمر على سواعدنا، ونقابل الكلمة بالكلمة، و الفعل بالفعل، فمن الواجب و الضروري، إخضاع أراء هذه المدرسة للغربلة و النقد و التمحيص من أجل الوصول الى الحقيقة، كل الحقيقة.

إن الكثير مما تضمنته تلك الدراسات من أفكار في رأينا، لا تتجاوز كونها محاولات – موجهة – استهدفت أساسا تمجيد بعض الشخصيات دون تناولها في سياقها التاريخي العام، كما أهمل أصحاب هذه الدراسات العوامل الداخلية في تطور الأحداث في المنطقة، فنظروا دائما للتطورات الداخلية من زاوية التأثيرات الخارجية، ناكرين بذلك مساهمة الأهالي في التطور الحضاري لعالم البحر الأبيض المتوسط، فمن هذه الزاوية مثلا ربطوا ظهور الزراعة في بلاد المغرب بقدوم الفينيقيين، وتطورها وتوسعها، بالتوسع الروماني، وهو الأمر الذي يتطلب منا تناول موضوع تاريخنا القديم من زوايا جديدة مع تفحص العوامل الداخلية عند تفسير الأحداث، لكن تحقيق مثل هذه الدراسات، ليس بالأمر اليسير، لما يتطلب ذلك من وثائق ومصادر، يصعب في أحيان كثيرة الوصول إليها في لغاتها الأصلية، التي لم تول لها جامعاتنا الأهمية التي تستحقها في برامجها.

وهذا عائق آخر من العوائق التي يشكو منها باحثينا، ويجعل واقع هذه الدراسات، وحتى أفاقها في نفق مظلم، يصعب الخروج منه حتى لا أقول يستحيل، وبالتالي نبقى على الهامش، في الوقت الذي تخطو فيه حتى الدول المجاورة، خطوات عملاقة بما تتوفر عليه من مراكز بحث و باحثين، يقومون بعمل دعوب، في الوقت الذي تشكوا فيه جامعاتنا ومراكزنا الجامعية من قلة التأطير في التاريخ والآثار القديمة، حتى لا أقول انعدام التأطير، وهو فعلا ينعدم في كثير من أقسام التاريخ، التي فتحت في السنوات الأخيرة، و أقصد التأطير على مستوى التدرج – الليسانس –، أما الدراسات العليا – ما بعد التدرج – فحدث ولا حرج، فيكاد ينعدم حتى في جامعاتنا الكبرى وبل ينعدم في بعضها "كما" ناهيك عن "النوعية"، التي لا يمكن ضمانها ما دمنا نسعى لضمان "الكم".

قد أكون قاسيا، في هذه الأحكام، وقد يرى البعض في هذا تشاؤم زائد عن حده، لكن يبدو لي، هذا واقع الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر، التي نتمنى

لها أفاقا أوسع مما هي عليه ، الأمر الذي دفعنا – ربما– الى رسم هذه الصورة السوداء.

قائمة المراجع المعتمدة:

Balout (L.) (1955), Préhistoire de l'Afrique du nord (Essai de chronologie), éd. Arts et métiers graphiques (Paris).

Benabou (M.) (2005), La résistance Africaine à la romanisation, éd. La découverte (Paris).

Berthier (A.) Chartier (A.) (1955), Le sanctuaire punique d'El-Hofras à Constantine, éd. Arts et métiers graphiques (Paris).Camps (G.) (1960), Aux origines de la berberie, Massinissa ou les débuts de l'histoire (Alger).

Cagnat (R.) (1892), L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, éd. Leroux (Paris).

Charrier (L.), Description des monnaies de la Numidie et de la Maurétanie

Camps (G.) (1960), Aux origines de la berbèrie, Massinissa ou les débuts de l'histoire, imprimerie officielle, (Alger).

Camps (G.) (1961), Aux origines de la berbèrie, monuments et rites funéraires protohistoriques, éd. Arts et métiers graphiques, (Paris).

Cintas (P.) (1970), Manuel d'Archéologie punique (Paris).

Courtois (Chr.) (1955), Les Vandales et l'Afrique, éd Arts et métiers graphiques, (Paris).

Dessanges (J.) (1962), Catalogue des tribus Africaines de l'antiquité Classique à l'ouest du Nil (Daka).

Diehl (Charles) (1896), L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine en Afrique (533-709) éd. Leroux (Paris).

Gautier (E. F.) (1952), Le Passe de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, éd. Payot (Paris).

Gsell (S.) (1901), Les monuments antiques de l'Algérie (Paris), (2vols).

Gsell (S.) (1902), Enquête administrative sur les travaux hydrauliques anciens en Algérie, (Paris).

Gsell (S.) (1911), Atlas Archéologique de l'Algérie éd. Leroux, (Alger-Paris), 2 vols.

Gsell (S.) (1915), Hérodote textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord, (Alger-Paris).

Gsell (S.) (1922), Inscriptions latines de l'Algérie (Paris).

Gsell (S.) (1912-1928) Histoire ancienne de l'Afrique du nord (8Vols), éd. Hachette, (Paris).

T1 : (1912) Les conditions du développement historique, les temps primitifs, La colonisation phénicienne et l'empire de Carthage, (Paris).

T2 : (1918) L'état Carthaginoise, (Paris).

T3 : (1918) Histoire militaire de Carthage, (Paris).

T4 : (1920) La civilisation Carthaginoise, (Paris).

T5 : (1920) Les Royaumes indigènes, organisation sociale, politique et économique (Paris).

T6 : (1920) Les Royaumes indigènes, vie matérielle intellectuelle et morale (Paris).

T7 : (1928) La république romaine et rois indigènes (Paris).

T8 : (1928) Jules César et l'Afrique, Fin des royaumes indigènes (Paris).

Lassere (J. M.) (1977), Ubique Populus peuplement et mouvements de la population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la Dynastie des sévères (146 Av JC- 235 Ap. JC) (Paris).

Leglay (M.) (1961), Saturne, Africain (Paris). (2vols).

Mazard (J.) (1955), Corpus Numorum Numidae Mauretaniaeque (Paris).

Moscati (S.) (1979), L'épopée phéniciens (Paris).

Salama (P.) (1951), Les voies Romaines de l'Afrique du nord, imprimerie officielle (Alger).